الاستشهاد بالقراءات القرآنية عند المدارس النحوية

أ.خالد بوصافي
جامعة تلمسان

الملخص:

معلوم لدارس العربية الخلاف الكبير بين أهلها حول الأخذ بالقراءات القرآنية بأقسامها كشواهد نحوية، فافترقوا بين مجيز ومانع ومشترط مؤول، ولكل مدرسة أو مذهب نحوي منهج خاص في التعامل معها.

لعل عصارة ما يمكن الخروج به بعد صبر أغوار هذا الموضوع أنه لم يعرف عن النحاة القدامى الذين أرسوا أصول النحو وقواعده ردَّ لقراءة أو تخطيئها أمثال أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل، وسيبويه...

كما أن الاحتجاج بالقراءات القرآنية عند النحاة يختلف بين النظرية والتطبيق .

فهم من حيث النظرية متفقون بأن كل ما ورد أنه قرئ جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا، كما أن القراءات القرآنية سنة مُتَّبَعَة لا تخضع للقياس والمناهج العقلية، كما أن القرآن الكريم بقراءاته حجة على اللغة وليس العكس.

المقال:

شرّف الله تعالى العربية بأن أنزل القرآن الكريم بها فقال جلّ شأنه:((**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**))[2] قال ابن كثير –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: « وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني القائمة بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللّغات على أشرف الرسل. »[3]

وقد عُلم أن علم العربية إنما كان لخدمة القرآن الكريم وبالتالي فقيمة كل ظرف تبع لقيمة مظروفه وشرف كل حامل من شرف محموله فهذه من تلك كضوء الشمس للقمر، وقريب من ذاك قول الناظم:

وكـــــل علم للمزية اِكتسب * فالفضل من معلومه له اِنتســـــب**

ومعلومة العلاقة الوطيدة بين القراءات القرآنية والدراسات النحوية، ومدى تأثير كل كنهما في الآخر ، حيث ظهرت على إثر هذه العلاقة مؤلفات في بيان مسائل الخلاف وأخرى في إعراب القرآن في توجيه القراءات السبع والقراءات الشاذة ...ومما يلفت انتباه الباحث في هذه الدراسات، تباين مواقف النحاة – على اختلاف مذاهبهم– من الاستشهاد بالقراءات القرآنية بأقسامها كشواهد نحوية، فافترقوا بين مجيز ومانع ومشترط مؤول، وكان لكل مدرسة أو مذهب نحوي منهج خاص في التعامل مع الشاهد القرآني.

ولما كانت القراءات القرآنية إحدى قنوات السماع كان من الطبيعي أن نعرض لهذا الأخير.

تعريف السماع :

أ –**لـــغة** : « (سمع) السَّمْعُ حِسُّ الأُذن وفي التنزيل: ((**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**))[4] .وقد سَمِعَه سَمْعاً وسِمْعاً وسَماعاً وسَماعةً وسَماعِيةً قال اللحياني وقال بعضهم السَّمْعُ المصدر والسِّمع الاسم والسَّمْعُ أَيضاً الأُذن والجمع أَسْماعٌ، ابن السكيت السَّمْعُ سَمْعُ الإِنسان وغيره يكون واحداً وجمعاً وأَما قوله تعالى : ((**وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ**))[5] فسره ثعلب فقال اسْمَعْ لا سَمِعْتَ وقوله تعالى: ((**إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**))[6] أَي ما تُسمع إِلا من يؤمن بها وأَراد بالإِسماعِ ههنا القبول والعمل بما يسمع لأَنه إِذا لم يقبل و لم يعمل فهو بمنزلة من لم يسمع وسَمَّعَه الصوت وأَسمَعه اسْتَمَعَ له

وتسَمَّع إِليه أَصْغى فإِذا أَدْغَمْت قلت اسَّمَّعَ إِليه وقرئ لا يَسَّمَّعون إِلى الملإِ الأَعلى يقال تَسَمَّعت إِليه وسَمِعْتُ إِليه وسَمِعْتُ له كله بمعنى»[7]

ب- إصطلاحا : «ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدة الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا، عن مسلم وكافر. فهذه الثلاثة أنواع لابد منها من الثبوت»[8]

والملاحظ أن تعريف السيوطي أتى جامعا مانعا إذ استغرق الزمان والمكان والمادة الأساس التي يستشهد بها لإثبات القواعد اللغوية،، فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية«سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا »[9]

والجدير بالذكر أن الأخذ بالقرآن الكريم والاستشهاد به لم يختلف عليه اثنان من النحاة، لكن محل الخلاف في أخذ بعض النحاة لقراءات معينة وردهم لقراءات أخرى خالفت قواعدهم كما زعموا.

ومما عيب على البصريون-مثلا- الإسراف في التأويل والتقدير في آيات القرآن التي تخالف أقيستهم وقواعدهم في حين رغب الكوفيون عن هذا إلا في الضرورة .[10]

وفي الظن أن البصريين ، والكوفيين الذين فعلوا ذلك، إنما فعلوه جميعا لغرض طبيعي هو محاولة إقامة التناسب وإزالة التنافر بين النص وقانونهم النحوي ، ولا يلزم أن يكون ذلك لخطأ النص وفساده بل هو إظهاره عن طريق التأويل والتقدير لما في حقيقة هذا النص من التطابق مع قانونه خلافا للتناقض الظاهر بينهما، فيصح النص وكذلك القاعدة ويزول ما يبدو بينهما من تناقض غير حقيقي ويظهر الانسجام بين ما أولوه ووجهوه وقدروه وبين ما قعدوه وقننوه، وعلى هداهم سار من جاء بعدهم من المدارس في شأن الأخذ بالقراءات القرآنية للإحتجاج بها في التقعيد اللغوي.

وحتى لا يكون الحكم العام جائرا فينبغي أن يعلم أن القراءات التي وقف عندها النحاة واستشكلوها، هي في حقيقة الأمر قليلة إذا قيست بمجموع القراءات، وهي لا تعدو أن تكون حروفا معدودة لا يصح من أجلها أن يعمم الحكم بأن فريقا كان يخطئ القراءات وفريقا آخر يقبلها[11]، والأليق أن يلتمس لهم جميعا العذر فيما فعلوا فيقال: إن من وقف منهم عند قراءة إنما وقف رغبة منه في التحري الدقيق للفظ القرآن ونطقه .

مواقف المدارس النحوية من القراءات القرآنية:

لم يطلق القدماء على (مسائل الخلاف) في النحو القديم كلمة (مدرسة) فلم يؤثر عنهم مصطلح المدرسة البصرية ولا المدرسة الكوفية ولا مدرسة بغداد، ولكن يقرأ في أقوالهم :مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب الفراء ومذهب سيبويه وغير ذلك. [12]

غير أن المعاصرين إستحدثوا هذه اللفظة (مدرسة) فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي كما إستعاروها في مسائل أدبية أخرى، وكأنها أتت من الغربيين فقد أشار طه حسين في درسه الأدبي إلى ما دعاه (مدرسة أوس بن حجر) وقد إستمر هذا العقاد والمازني وشكري فكانت (مدرسة الديوان) كما أطلقها آخرون على الأدب في المهجر في معرض الخلاف الكبير بين أدبائهم ونزاعاتهم الفكرية [13]

ومع مرور الزمن صار هناك شبه إجماع من لدن الباحثين في عصرنا هذا من تاريخ النحو والنحاة فأثبتوا [14]مصطلح **المدرسة** في نحو البصريين ومثله مدرسة الكوفة ومدرسة بغداد ومن تلاهم.

ومن المسلمات عند علماء النحو أن اللّغة إذا وردت في القرآن الكريم فهي أفصح من ورودها في غيره، وأن القراءات القرآنية سنة متبعة لا دخل للقارئ غير ضبط السند وموافقة شروط السلامة والصحة.

ومع هذا نجد آراء النحاة تتعدد في الإستشهاد بالقراءات القرآنية، فقد وجد كثير منهم يتصيدون للقراءات بالتخطيئ تارة وبالتضعيف أخرى وبعضهم أيدها، حتى طال الجدل بينهم وبين القراء.

والجدير بالذكر أنه من غير المنطقي أن نحكم على كل مدرسة على حدة أنها كانت ترد القراءات القرآنية ولا أن نبرئ أخرى من ذلك. فإن من البصريين[15] –مثلا– من إستدل بها كسيبويه والخليل وغيرهما، مع أن الغالب على هذه المدرسة ردّها للقراءات، وفي الوقت نفسه نجد الكوفة[16] المعتدلة في هذا الشأن قد حصل من بعض علمائها– كالفراء – رد وتخطيء لبعض القراءات القرآنية.

وسنحاول تبيين موقف كل مدرسة من القراءات القرآنية في الإستشهاد بها في وضع القواعد النحوية.

1- منهج المدرسة البصرية:

إعتمدت في التأصيل لقواعد النحو على السماع والتعليل والقياس،[17] والثابت أن هذه الأصول الثلاثة نجدها عند كل مدرسة غير أن أصحاب كلٍ منها يختلفون في استخدامها. فبعضهم يتساهل في السماع وآخر يغلّب القياس وهكذا. ونجد البصريين اعتمدوا في منهجهم على الأفصح من الألفاظ والسهل منها على اللسان، ولذلك إختاروا من القبائل المقطوع بعراقتها في العربية والمصونة من العجمة.[18] في حين تركوا الأخذ من القبائل المجاورة للمدن أو للعجم متهمين إياها بفساد ألسنتها، بالإضافة إلى إختبارهم للأعراب الذين يشكون في فصاحتهم[19].

وبهذا يفهم أن جغرافية اللغة المأخوذ بها أضيق وأصغر مما كان آنذاك بالنظرة لعدد القبائل، بالإضافة إلى أنهم تحروا الرواية عن الثقة الحافظ، رافضين الإستدلال بشاهد لم يعرف قائله[20].

وفيما يخص القياس «فقد قاسوا على الأكثر، وإلا فعلى الكثير، وإلا فعلى القليل وإلا فعلى الأقل وإلا فعلى الناذر» [21]فلا مكان عندهم للشاذ، كما أن القرآن الكريم كان أحد أدلتهم المهمة والأساسية، وسيأتي التفصيل فيه.

إلا أنهم–في الجملة– أغفلوا الإستشهاد بالحديث النبوي الشريف، وحجتهم في ذلك أن قدرا كبيرا منه روي بالمعنى ولم يضبط بلفظه، ولأن أغلب المحدثين لم يكونوا عربا.[22] وقد يلمس في هذا الحكم بعض الشطط.

وفي الجملة يمكن وصف منهج البصرة بأنه: «منهج تعليمي يريح المتعلمين من كثرة القواعد والأحكام »[23]

موقف المدرسة البصرية من الاستشهاد بالقراءات القرآنية:

حازت البصرة قصب السبق في إرساء قواعد النحو وأصوله. وعرف عن علمائها الأوائل بأنهم كانوا من قرّاء الذكر الحكيم [24]كعبد الرحمن بن هرمز، وعبد الله بن إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد، إذ إنهم أقاموا نحوهم على القرآن الكريم.[25] ولم يثبت عن الطبقة الأولى ولا عن سيبويه ردهم لقراءة أو استهجانهم لها.[26] وعدد المسائل التي ورد فيها الإستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته في كتاب سيبويه بلغت مائة وتسعة وثمانين مسألة (189).[27]

ويقول شوقي ضيف «ليس في كتاب سيبويه تخطئة واحدة لقراءة من القراءات مع كثرة ما استشهد به منها، وقد صرّح بقبولها جميعا مهما كانت شاذة على مقاييسه.»[28]

غير أن من جاء بعدهم ضيقوا في هذا أشد الضيق فلم يأخذوا بقراءات عِدة لها أساس في لغات العرب[29] مغلبين أقيستهم وقواعدهم، فما وافقها أخذوا به وما خالفها ردّوه. وهذه نماذج من صنيعهم.

نماذج من تعامل مدرسة البصرة مع القراءات القرآنية:

قاموا بتخطئة قراءة عبد الله بن عامر، مقرئ الشام[30] في قوله تعالى: ((**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ**))[31] بنصب (أولادَهم) وجر (شُركائِهم)

والخطأ المزعوم في هذا أنهم يمنعون الفصل بين المتضادين في غير ضرورة الشعر. فلم يقبلوا هذه القراءة مع علمهم أنها متصلة السند ومن القراءات السبع.

تخطئة قراءة حمزة لقوله تعالى: ((**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**)) [32] بجر (الأرحام) لأنهم لا يجيزون العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار [33] فهذا صَنيع بعضهم مع قراءات متواترة فكيف بالشاذة وما دونها،ونَعد مَن وقع من أعلام هذه المدرسة في ذلك: المازني والمبرد، والزجاج.[34] ومن المواطن –المُحتشمة– في اِستدلالهم بالقراءات القرآنية[35]

2- منهج المدرسة الكوفية :

سبقت الإشارة أنه ما من مدرسة إلا وقد اِعتمدت السماع والقياس والتعليل أصولا لها لإحقاق القواعد، لكن ميزت الكوفيين أنهم قبلوا كل مسموع « معتمدين مختلف البيئات اللّغوية واللهجات التي تتبث عندهم صحة سلامتها وفصاحة عربيتها بما في ذلك أعراب البوادي والأرياف »[36] وبالتالي لم يقف القياس عند المستعمل الشائع على الألسة –كما في البصرة– « بل اِمتد ليشمل ما ينطق به العرب المتحضرون »[37]

ولعل المسألة الزنبورية[38] أرست أصلا من أصول هذه المدرسة وهو الأخذ باللغات الشاذة المخالفة للشائع المتداول والقياس المعروف. ونلحظ ميزة ثانية تشد الانتباه في منهج الكوفيين؛ هي تساهلهم في التثبت عن صحة المسموع وأمانة قائله.

«فأخذوا عن حماد الراوية (ت155هـ) وخلف الأحمر(ت180هـ) وكلاهما متهم في روايته (يضعان الشعر ونسبانه لغيرهما)»[39]

و لم يشترطوا لكثرة الكاثرة في القياس «بل قاسوا على الشاهد الواحد ولو جاء مُخالفا للكثرة المتفق القياس عليها. »[40]

وأكبر الظن أن الذي دفع الكسائي –علم هذه المدرسة– والذين جاءوا من بعده لهذا الرأي «القراءات القرآنية، إذ كانت تجري1 في قراءة الكسائي –مثلا– حروف تشذ على النحو البصري، فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة وأنها لا تجري على العربية السليمة، وربما خشي اِندثارها وهي جميعا مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.»[41]

وقد يتبادر للذهن أن البصريين لم يلجؤا إلى القياس، وأن الكوفيين فعلوا الشيء نفسه مع السماع. فهذا غير صحيح فالحاصل أنه: « لما تحفظ البصري وتشدد في أقيسته تَبَعا للمسموع المعتمد عنده سمي أهل سماع، ولما توسع الكوفي في القياس والمقيس عليه سمي أهل قياس، حيث فتح ذراعيه لكل مسموع » [42]

وأما مصادرهم فكانت[43] :

- **القرآن الكريم:** كانوا يستشهدون في مسائل كثيرة بآيات منه، وكان المرجع الأساس بقراءاته .
- **الشعر العربي:** الجاهلي منه والإسلامي وما أثر من أمثال الجاهلية، وفي بعض الأحايين تجاوزوا الحقبة المحددة في الإستشهاد[44]
- أما **الحديث الشريف:** فقد اِقتدوا بالبصريين وارتأوا عدم الأخذ به للعلل السابق ذكرها.

موقف المدرسة الكوفية من الإستشهاد بالقراءات القرآنية:

لم يتحفظ الكوفيون كما تحفظ البصريون في مجال القراءات، فقد كانوا أوسع أفقا وأرحب صدرا فقبلوا كل ما جاء من القرآن مؤثرين في أحايين كثيرة عدم التأويل والتجريح، سائرين على الأعم الأغلب.[45] ذلك راجع لرعايتهم الخاصة بكل مسموع، والقرآن أجدر مسموع بالأخذ وقواعده تمنح القاعدة شموخا وتعظيما.

ومما لا يخفى عنّا أن عَلَم هذه المدرسة (الكِسائي) كان من قرّاء الذكر الحكيم، وأن قراءته سبعية «وكانت تجري في قراءته حروف تشذ على حروف النحو البصري فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة وأنها لا تجري على العربية السليمة، وربما خشي اندثارها وهي جميعا مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، المتواتر وغير المتواتر»[46]

ووجد بهذه المدرسة كذلك قرّاء آخرون، كأبي عبد الرحمن السُلمي وعاصم وحمزة الزيات وغيرهم.

وهذا الموقف السليم اُتجاه القراءات قد عمّ جل أعلامها، غير أننا نجد معاذا الفرّاء وهو ثاني عَلَم في هذه المدرسة تعرّض للقراءات الشاذة بالإنكار العنيف،[47] وتبعه في ذلك بعض العلماء.

نماذج من تعامل مدرسة الكوفة مع القراءات القرآنية :

زخرت كتب البصريين بقراءات قرآنية متواترة وشاذة، ولكثرتها سنكتفي بهذه الأمثلة[48]:

❖ قوله تعالى: ((**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**))[49] لاحظوا أن (الصابئون) عطف بالرفع على اسم (إن) المنصوب قبل تمام الخبر وهو (من آمن بالله واليوم الآخر)[50]

فقعدوا أنه يجوز العطف على موضع (إن) واسمها وموضعها الإبتداء، وهو مرفوع قبل مجيء الخبر (منعه البصريون) وخرجوا للآية مايلي:

الأول : الصابئون، خبرها محذوف تقديره (كذلك) **والثاني** : مبتدأ وما بعده خبر.

قوله سبحانه : ((**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ**))[51] فالمضارع فيها محذوف النون فقالوا: حذفت على تقدير لام الأمر وقعّدوا لام الأمر من المضارع بشرط تقدم (قُل) عليه كما في الآية..

قوله سبحانه : ((**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ**))[52] في قراءة سعيد بن جبير بنصب (عبادا) مما جعل الكسائي يضع قاعدة عامة هي:

- (إن) النافية إذا دخلت على الجملة عملت عمل (ليس) فرفعت الإسم ونصبت الخبر.

أما تخطئة بعض القراءات وردها لم تسلم منه هذه المدرسة. ومثاله:[53]

❖ في قوله سبحانه: ((**إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**))[54] قرأها حمزة (يُخافا) قال الفرّاء: «لا يعجبني ذلك»[55]

3 – منهج المدرسة البغدادية :

لم يكن لها منهج من حيث الأسس أو طرائق الإستنتاج، لكنه منهج بني على الإنتقاء من مدرستي البصرة والكوفة.[56]

ومن ثم فالرواد الأوائل لمدرسة بغداد يقبلون على الكوفة ويحبذونها، مع أخذهم من البصرة كذلك وإن كان ميلهم إلى الكوفة أشد. ومن أشهر هؤلاء إبن كيسان وابن شقبر(ت315هـ) وابن الخياط(ت320هـ).

وفي المقابل أقبل آخرون على البصرة إلى جانب أخذهم عن الكوفة، لكن ميلهم إلى الكوفة أشد ومن أشهرهم: أبوعلي الفارسي وابن جني.[57]

هذا ما دفع كثيرا من المعاصرين إلى محاولة نفي المدرسة البغدادية،[58]معتمدين على أن أفرادها بصريون أو كوفيون. حتى إن علمين من أعلام جيلها الثاني (أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني) كان ينسبان إلى البصريين ويكنيان بذلك.

ومجمل القول أن المدرسة عنيت بالسماع والقياس والتعليل وبرعت فيها، والملاحظ أخذها بالقراءات الشاذة والعناية بها بالإضافة إلى الشعر مع حضور محتشم للحديث النبوي في استشهاداتهم، فقد أولى بعض العلماء عناية

بأن أفردوا له مصنفات خاصة.[59] كمشكل الحديث لابن قتيبة وإعراب الحديث للأنباري، وغريب الحديث لابن قتيبة ...وعيرها.

موقف المدرسة البغدادية من الإستشهاد بالقراءات القرآنية :

سبقت الإشارة إلى أن منهج هذه المدرسة كان الانتخاب من المدرستين اللّتين سبقتا، وإضافة أحكام جديدة في أحايين كثيرة.

أما موقفهم اتجاه الاستشهاد بالقراءات القرآنية كان معتدلا–في الغالب– لاسيما نجدها عنيت أشد العناية بهذا الشأن، ولعل ذلك راجع إلى سِعة المادة التي توفرت لها وبالتالي كانت أوفر حضا وأصوب رأيا.

ونجد كبار أعلامها ألفوا في القراءات القرآنية[60] كأبي علي الفارسي له كتاب (الحجة في القراءات السبع) ونجد كذلك ابن جني له كتاب (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات) وكتاب (الحجة) لابن خالويه وكتاب (إعراب القراءات الشواذ) للعكبري وغيرها. إلا أنه وجد في هذه المدرسة من تعرض لبعض القراءات بسوءٍ حتى المتواتر منها. كصنيع الزمخشري مع قراءة ابن عامر.[61] لكن الغالب على هذه المدرسة هو الأخذ بالقراءات القرآنية متواترها وشاذها على حد سواء.

نماذج من تعامل مدرسة بغداد مع القراءات القرآنية:

من صور اِحتجاج أبي علي للقراءات السبع :[62]

قوله تعالى: ((**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**))[63] قال: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي(نَغفر)بالنون. وقرأ نافع (يُغفر لكم) بياء مضمومة لم يسم فاعله. وقرأ ابن عامر (تُغفر لكم)مضمومة التاء...قال أبوعلي: **حجة** من قرأ (نغفرلكم) أنه أُشكل بما قبله، ألا ترى أن قبله(وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) فكأنه قال:(قلنا ادخلوا نغفر). بالتاء. و**حجة** من قرأ (يُغفر لكم) أنه مؤول إلى هذا المعنى فيعلم من الفحوى أن ذنوب المكلفين... لا يغفرها إلا الله، وكذلك قول من قرأ: (تُغفر لكم) فلأن من قرأ (نغفر) لم يُثبت علامة التأنيث في الفعل لتقدمه كما لم يثبت ذلك في نحو قوله تعالى: ((**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ**))[64] وكلا الأمرين جاء به التنزيل»[65] فتبين أنه يسعى جادا لتخريج كل قراءة دون رد أو طعن أو تحاشي، فهذا منهجه في كامل الكتاب.

قال ابن جني: «..ومن ذلك قراءة طلحة بن سليمان ((**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ**))[66]

برفع الكافين (يدرِكُكُم) قال ابن مجاهد: وهذا مردود في العربية. قال أبو الفتح: هو لعمري ضعيف في العربية وبابه الشر لأنه ليس بمردود لأنه قد جاء عندهم، ولو قال مردود في القرآن لكان أصح معنى »[67]

ثم أخذ يخرج تلك القراءة فقال: «وذلك على أنه حذف الفاء كأنه قال: (فَيدرِكُكُم) ومثله بيت الكتاب[68] :

مَن يَفعلِ الحَسَناتِ اللهُ يَشْكُرُها * والشرُّ بالشرّ عند الله مثلان**

أي: فالله يشكرها »[69] وغير هذا كثير فالرجل ينتصر للقراءات أيًا كانت، وتعجبني عبارته «القرآن يُتخير له ولا يُتخير عليه »[70]

4- منهج المدرسة الأندلسية :

كان لهذه المدرسة ما لم يكن لسابقيها، إذ اِنها فتحت عينيها على ثلاثة مدارس فوافقتها في الأصولــ وانتخبت واجتهد في الفروع مع عنايتها الخاصة بالإستنباط والتعليل والإحتجاج[71] مع صياغة آراءٍ جديدة لم يسبق إليها سابق، كصنيع ابن مضاء في نظرية العامل،[72] وجهود ابن مالك اُتجاه الشاهد الحديثي.

والحق أن أوائل النحاة في الأندلس كانوا أكثر إقبالا على الكوفة، ثم توالى الأخذ عن البصرة والكوفة وبغداد معا. لكنهم لم يخضعوا خضوعا كاملا للنحو المشرقي.[73] وقد وضعت المدرسة القرآن الكريم في رأس المصادر التي يُعتمد عليها، ونجد هذا المنهج يتجلى بوضوح عند أبرز أعلام هذه المدرسة ألا وهو ابن مالك. كما عنيت هذا المدرسة بالشعر في الإستشهاد والتقعيد، ويحفظ لهم إنزالهم الحديث النبوي الشريف المترلة اللاّئقة في باب الإستشهاد.

موقف المدرسة الأندلسية من الإستشهاد بالقراءات القرآنية:

كان إقبال هذه المدرسة على القراءات إقبالا شديدا بحكم تأثر أوائل أعلامها بالنحو الكوفي.[74] يُضاف إلى ذلك عنايتهم بالحديث النبوي كشاهد رغم الجدل القائم حوله، فكان أخذهم بالقراءات القرآنية بمختلف أقسامها من باب أولى، وليس أدل على ذلك من كتاب التسهيل لابن مالك، إذ يروع القارئ مايجد فيه من فيض زاخر من الآيات القرآنية.

فقد وضع ابن مالك-رحمه الله- وغيره من أعلام المدرسة القرآن الكريم بقراءاته على رأس المصادر التي يرجع إليها، ولا فرق عندهم بين قراءة متواترة وشاذة[75] فالقرّاء لا يأتون بشيء من عندهم، بل يلتزمون ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وشعار المدرسة في ذلك: «أن القرّاء لا ينظرون في القرآن على الأفشى في اللّغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية.وإذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.»[76]

وكثيرا ما نجد بعض أعلام هذه المدرسة يتعجبون أشد العجب ممن يرد القراءات القرآنية لمُخالفها أقيسة مزعومة وتقديم أشعار معروفة ومجهولة عليها.[77]

نماذج من تعامل مدرسة الأندلس مع القراءات القرآنية :

❖ قوله تعالى: ((**قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا**))[78] إستدل بها على جواز حذف نون الرفع في النثر مجردة من نون الوقاية.[79]

وقوله تعالى: ((**إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ**))[80] إستدل بها على سقوط نون جمع المذكر السالم إختيارا قبل نون ساكنة.[81]

5- منهج مدرستي مصر والشام :

قام منهجها على الإنتخاب والموازنة بين آراء البصريين والموفيين ومن تلاهما من نحاة في أقطار العلم العربي، مع أنها وقعة لنفسها آراءً تتماشى ومقاييسها لم تسبق إليها[82].

وحتى لا نعيد ماقلناه فقد سارت المدرسة المصرية وراء من سبقها من المدارس فيما يخص المنهج، إلا أنها إمتازت بخصائص عن غيرها هي:«مزج النحو بالمنطق، ووضع المتون وكثرة الشروح والإهتمام البالغ بالشواهد الشعرية، والإستشهاد بالقراءات القرآنية متواترها وشاذها، وبما ورد عن حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. بالإضافة إلى الموازنة والإختيار والإجتهاد »[83] والحق أن كُلاً من المدارس الثلاثة (بغداد والأندلس ومصر) هي عالة على مدرستي البصرة والكوفة. لكن مثل هذا التنوع يُثري الدرس النحوي بخاصة وعلم العربية بعامة

موقف مدرستي مصر والشام من الإستشهاد بالقراءات القرآنية:

توفر لهذه المدرسة كمٌ وافر من المادة اللغوية وسعة الاضطلاع بحكم تأخرها في الإلتحاق بالركب، فضربت في كل مدرسة بسهم وأخذت من كُلٍ أحسن ما معها.

كما أنها سلمت من عي رد القراءات القرآنية أو التشدد في الأخذ بها والتحري في وضع القواعد النحوية على أسسها.

«فقد أكثر شيخ هذه المدرسة ابن هشام —على سبيل المثال- من الإستشهاد بالقراءات القرآنية

والإحتجاج بها.»[84] ولهذا نقول إن كثرة الإستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته خاصية من خصائص المدرسة النحوية في مصر والشام.[85] وهذا المنهج الحصيف كان نتاجا لتراكم المعارف وطول الزمن النظرة الثاقبة والقصد السليم.

نماذج من تعامل مدرستي مصر والشام مع القراءات القرآنية :

❖ يرى جمال الدين ابن هشام إنه يمكن تخريج مسألة الزنبور "فإذا هو هي" على أن ضمير النصب اُستعير في مكان الرفع إذ يقول: « ويشهد له قراءة الحسن: ((**إِيَّاكَ تُعْبُدُ**))[86] ببناء الفعل للمفعول.»[87]

❖ ونجده يأخذ بقراءة علي رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿ لَإِنَّ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾[88] بنصب (عصبة) ويخرجها على «نُوجد عصبة أو نُرى عصبة »[89]

خاتمة:

1- يمكن حصر مواقف نحاة المدارس اتجاه القراءات القرآنية في مايلي :

- طرف أخذ بها غير راد ولا مخطئ .
- وثان تحفظ اتجاهها.
- وثالث وقع في رادها وتخطئتها.

2- أن معظم النحاة وجمهورهم لم يرد القراءات ويلحنها وإنما كانت هذه الظاهرة عند عدد قليل منهم فلا يجب أن تتخذ هذه الظاهرة ذريعة للهجوم على النحاة والطعن فيهم واتهامهم بعدم الاعتداد بالقراءات الثابتة كمصدر من مصادر بناء قواعدهم واتهامهم بمعاداة القراء والقراءات.

3- أن القراءات التي طعن فيها ولحنها قليل من النحاة قد دافع عنها الكثير منهم وبنوا عليها قواعدهم وتحمسوا لهذه القراءات ورفضوا كل مطعن فيها من أمثال ابن مالك وأبي حيان وغيرهما.

4- أن القرآن الكريم وقراءاته قد أثبت شموله لمعظم لهجات العرب تأليفا لقلوبهم وكثير من القراءات التي طعن فيها بعض النحاة لأنها لم تأت على اللهجة المشهورة قد وردت على لهجات عربية أخرى غير لهجة قريش فالقرآن يعتبر سجلا للهجات العربية حتى يجد كل عربي فيه ما يألفه من ألفاظ فينشرح له صدره ويؤمن به .

الهوامش:

---

[2] - [يوسف : 2]

[3] - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (تفسير القرآن العظيم) تح: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999 م ج04/ص 365.

[4] - [قـ : 37]

[5] - [النساء : 46]

[6] - [النمل : 81]

[7] - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (لسان العرب) دار صادر – بيروت- الطبعة الأولى . مادة (سمع)

[8] - جلال الدين السيوطي (كتاب الإقتراح في علم أصول النحو) تحقيق وتعليق: د.أحمد محمد قاسم .مطبعة السعادة –القاهرة- الطبعة الأولى ص 38.

[9] - جلال الدين السيوطي (كتاب الإقتراح في علم أصول النحو) ص 38.

[10] - عبد الكريم بن محمد الأسعد (مجلة البحوث الإسلامية) مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد العدد 79. ص 292 –بتصرف-

[11] – عبد الكريم بن محمد الأسعد (مجلة البحوث الإسلامية) العدد 38ص 299

[12] –إبراهيم السامرائي (المدارس النحوية أسطورة وواقع) دار الفكر –عمان– الطبعة الأولى 1987.ص 12.

[13] – نفسه –بتصرف–

[14] – نفسه –بتصرف–

[15] – نبيل بن محمد إبراهيم آل إسماعيل(علم القراءات/ نشأته–أطواره–أثره في العلوم الشرعية) مكتبة التوبة –الرياض– السعودية الطبعة الأولى
1421هـ/2000م ص 406 .

[16] – نفسه .

[17] – شوقي ضيف (المدارس النحوية)

[18] – إبراهيم السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص29–بتصرف–.

[19] – ينظر :أبو الفتح عثمان بن جني (الخصائص) تحقيق محمد علي النجار.عالم الكتب –بيروت– د ت.د ط. ج2.

[20] – السابق ص13.

[21] – نفسه ص33.

[22] – ينظر : المرجع نفسه ص34.

[23] – نفسه .

[24] – ينظر: شوقي ضيف (المدارس النحوية)ص46

[25] – السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص33.

[26] – هيتاري "جامعة ضمار –اليمن–" (المدارس النحوية) مرجع صوتي. شريط الثاني. عن محرك البحث www. google.com.

[27] – صالح شعبان (مواقف النحاة من القراءات القرآنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري) دار غريب. القاهرة 2005م ص77 –بتصرف–

[28] – ينظر: شوقي ضيف (المدارس النحوية)ص26.

[29] – ينظر: السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص35.

[30] – نفسه.

[31] – [الأنعام : 137]

[32] – [النساء : 1]

[33] – إبراهيم السامرائي (المدارس النحوية أسطورة وواقع) ص23.

[34] – ينظر: إبراهيم آل إسماعيل (علم القراءات..) ص406.

[35] – سالم مكرم (القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية) مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة 1996 ص109.

[36] – صالح شعبان(مواقف النحاة من القراءات القرآنية) ص 97 –بتصرف–

[37] –شوقي ضيف (المدارس النحوية) ص176.

[38] – ينظر: جمال الدين ابن هشام الأنصاري (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) تحقيق: مازن المبارك / محمد علي حمد الله.د ط. دار الفكر–دمشق–
1985 م ص121.

[39] – علي الطنطاوي (نشأت النحو وتاريخ أشهر النحاة) دار المعارف–القاهرة– . الطبعة الثانية. دت. ص 108.

[40] – السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص32.

[41] – شوقي ضيف (المدارس النحوية) ص176 –بتصرف–

[42] – السابق ص33.

[43] – نفسه.

[44] – إبراهيم السامرائي (المدارس النحوية أسطورة وواقع) ص21.

[45] – ينظر: صالح شعبان (مواقف النحاة من القراءات القرآنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري) ص99.

[46] – شوقي ضيف (المدارس النحوية)ص176.

[47] – نفسه ص06.

[48] – نفسه ص177

[49] – [المائدة : 69]

[50] – السابق.

[51] – [إبراهيم : 31]

[52] – الأعراف : 194]

[53] – سالم مكرم (القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية) ص175.

[54] – [البقرة : 229]

[55] – الفراء(معاني القرآن) ج1/ص147.

[56] – ينظر: عبده الراجحي (دروس في كتب النحو) ص106.

[57] – نفسه –بتصرف–

[58] – ينظر: شوقي ضيف (المدارس النحوية)ص08– الراجحي (دروس في كتب النحو) ص245.

[59] – الراجحي (دروس في كتب النحو) 264–299.

[60] – عبده الراجحي (دروس في كتب النحو) ص246.

[61] – ينظر:إبراهيم آل إسماعيل (علم القراءات) ص405.

[62] – ينظر: سالم مكرم (القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية) ص194.

[63] – البقرة 58.

[64] – يوسف 30.

[65] – أبو علي الفرسي (الحجة في القرءات السبع) تحقيق عبد الفتاح شلبي. مؤسسة الرسالة د ط. دت ج2 ص85. –بتصرف–

[66] – [النساء : 78]

[67] – ابن جني (المحتسب) 379/1.

[68] – سيبويه (الكتاب)ج3/ص65.

[69] –السابق 231/1.

[70] – نفسه 34/1.

[71] – شوقي ضيف (المدارس النحوية) ص07.

[72] – ينظر : كتاب الرد على النحاة لإبن مضاء.

[73] – عبده الراجحي (دروس في كتب النحو) ص169.

[74] – عبده الراجحي (دروس في كتب النحو) ص 169.

[75] – ابن مالك (شرح التسهيل) ص46 –بتصرف–

[76] – نفسه –بتصرف–

[77] – ينظر: سعيد الأفغاني (في أصول النحو) ص32.

[78] – [القصص : 48]

[79] – ابن مالك (شرح التسهيل) ج1/ ص53.

[80] – [الصافات : 38]

[81] – ابن مالك (شرح التسهيل) ج1/ ص73.

[82] – ينظر: شوقي ضيف (المدارس النحوية) ص347.

[83] – السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص237..إلى204. –بتصرف

[84] – إبراهيم السامرائي (المفيد في المدارس النحوية) ص239 بتصرف.

[85] – نفسه.–بتصرف–

[86] – [الفاتحة : 5]

[87] – جمال الدين ابن هشام (مغني اللبيب من كتب الأعاريب) تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. دار الفكر –دمشق– سوريا 1985م ص125.

[88] – [يوسف : 14]

[89] – السابق ص126.